لمحات من التراث العربى
فى أدب محمود بيرم التونسى

بقلم: عبدالعليم القبانى

السخرية طبع أصيل فى بعض النفوس، وموهبة غير متكلفة، تنمو أحياناً بالممارسة، كما هو الحال عند رسامى الكاريكاتير، الذين أداتهم الصورة القلمية، القائمة على إيضاح قفشة ذهنية، فرضتها ظروف معينة.

وهى عند بيرم.. تقوم على كلمات منظومة حية، لا تملك حيالها إلا أن تضحك منها صاحبها، وهى عندهم واضحة أكثر من المرسومة بالقلم، إذ أنها تترك أمام خيال المستمع مجالاً واسعاً لتخيلها، مجالاً لا يحده حد ولا يقف حيث يقف القلم، وقد كانت هذه السخرية سمة من سمات «بديع الزمان الهمذانى» أحد رواد المقامة فى الأدب القديم، والذى يعتبر هو ومقاماته.. فيما أرى.. أحد الروافد الأساسية فى مقامات بيرم التونسى.

نستمع إلى «بديع الزمان» وهو يتحدث عن نهم أكول، وقد جلس على مائدة الطعام ضيفاً عن بعض الكرام.

فيقول عنه: إن يده تسافر على الخوان وتفقأ عيون الرفقان.. يهزم المضغة بالمضغة.. ويدفع اللقمة باللقمة.. ولقد ظللت معجباً بهذا الوصف، حتى قرأت وصفاً لضيف مثل صاحبنا، كتبه بيرم التونسى، متحدثاً عن أحد المشايخ المنهومين، فآمنت بما لبيرم من موهبة عالية فى هذا البيت.. إذ يقول:

أنا فى جاه خالقى مستجير مسلم
أى جن يكون فى بطنه حين يلقم

خلت إبليس ساكناً بطنه وهو يرجم
هو فى الشغل كالحمار وفى الأكل ضيغم
كل صحن لظفره فيه خدش معلم
وهو بعد كل ذا بارد يا أفندم
داخلا كل محفل سائلاً كيف يُعزم
يستوى عنده إذا جاع عرس ومأتم

ثم يصف بيرم هذا الضيف، وهو يتابعه خطوة خطوة فيقول:

إن الشيخ.. مد يده.. إلى طبق القطائف:

وعاد ينعف ما قد كان فيه إلى حلقومه ومضى قواما

وإلى صحن القرع المحشو

فكان يدكه في فيه حافاً وظن القرع خبزاً لا إداما

وإلى الفرخة التى:

تناولها بكلتا راحتيه فلم يترك بها إلا عظاما

وإلى الشوربة:

كذلك ساغها ولها لهيب فلا بردا عليه ولا سلاما

وإلى الأرز الذى باللبن:

فكنت أرى لشدقيه انتفاخاً وقد فقد التنفس والكلاما

وإلى قمر الدين المبلول:

ففتت أولاً فيه رغيفاً وأقبل بعد يلتهم التهاما

وإلى القراصيا التى بالزبيب:

فـيـبلعـهـا ولا يرمى نواها ولم أر هكذا إلا النعـامـا

وإلى الكنافة:

رآها فـجـأة قـرصـاً كـبـيـراً فـقـام وحل للفـور الحـزامـا

فـقـلت له وقـد أبدى نصـالاً مـحـددة وأنيـاباً عظامـا

متى تشبع؟ فـقـال إذا سـمـعنا أذان الصبح إذ ننوي الصيـامـا

ويختتم بيرم.. هذا الوصف لهذا الأكول.

يقول الأكول وهو يشرب من جام الشربات، أى من إنائه الذى وضعه على فمه:

عـبـبت فى الجـام حت لو أتى أسـد

والله مـا اسطاع من كـفى ينزعـه

أرى الصنوبر وقت الشـرب منحـدراً

إلىَّ عند فـمى واللوز يتـبـعـه

ولم أحس بما قـد كـان منتـفـخـاً

من الزبيب لأنى كنت أبلعـه

مجلة الشباب عدد ١٢٠

١٩٢٣/٥/١٣

كانت مصادر المعرفة عند بيرم فى بدايات اشتغاله بالأدب، تنبع من

المكتبة العربية التى كانت متاحة لأمثالنا من أبناء الشعب، من الذين لم تكن لهم دراسات منظمة، ولذلك كان إقبالنا على الكتب المتاحة لنا من مثل «ألف ليلة» و«سيرة الظاهر بيبرس» و«عنترة بن شداد» وكان هناك كتاب من الأدب الشعبى اسمه (هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف) كما كان هناك كتاب آخر اسمه «إعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بنى العباس» وهو كتاب شيق، يجمع كثيراً من النوادر التى قد لا تجد بعضها فى غيره، من مثل القصيدة ذات الألفاظ الغريبة المنسوبة للأصمعى.. والتى مطلعها:

صوت صفير البلبل ... هيج قلب الثمل
الماء والزهر معا ... مع زهر لحظ المقل
وأنت يا سيدي ولى ... وسيدي ومولي
وقلت بس بسبسنى ... فلم يجد بالمقل
وقال لا لا لا ... ولي ولي يا ويلي

إلى آخر القصيدة وفى الكتاب مقطوعة أخرى، سأتبع فى عرضها قليلاً، لأن لها صلة بالتكوين الثقافى عند بيرم، حتى لقد أثرت فى بعض إنتاجه.

وتقول قصة هذه المقطوعة، إن الخليفة هارون الرشيد وبصحبته الوزير جعفر، كان يتريضان خارج بغداد، فوجدا بعض الفتيات يستقين من ماء بئر فعرجا عليهن وأن واحدة منهن تغنت.. بقولها:

قولى لطيفك بنشني ... عن مضجعى وقت المنام
كي استريح وتنطفي ... نار تأجج في العظام
مضنى تقلبه الأكف ... على بساط من سقام
أما أنا فكما علمت ... فهل لوصلك من دوام

فأعجب أمير المؤمنين بملاحتها وفصاحتها.

وقال لها:

هل هذا من قولك أم من مقولك؟

قالت: من قولى.

قال: إن كان كلامك صحيحاً: فأمسكى المعنى، وغيرى القافية.. وكان أن أنشدت تقول:

قـــول لـطيـــفك بـنشـني عن مـضـجـعى وقت الوسن

كي اســـتـــريح وتـنـطـفي نـار تـأجـج فـي الـبـــدن

مُـــضْنٍ تـقـلـبـــه الأكـف عـلـى بـســاط من شـــجن

أمـــا أنا فـكمـــا عـلمت فـــهـل لـوصـلـك من ثـمـن

وتقول القصة، إن الخليفة طلب منها كذلك، أن تغير القافية، وتحتفظ بالمعنى، فصنعت ذلك أربع مرات، وأنها نالت رضا الخليفة.. فتزوجها.

ومن باب هذه القصة، ندخل إلى عالم بيرم التونسى الرحيب، وكيف أن هذه القصة، أثرت فيه ورسمت له بعض أساليبه.

ذلك إذ يتحدث عن بعض المجاورين، وما أكثر ما تعرض لهم، حيث يمكن لتعرضه هذا، أن يكون موضع دراسة واسعة، قد تجرنا إلى الكثير ونكشف عن الكثير.

يتحدث بيرم عن هذا المجاور المتيم الولهان.

فيقول على لسانه: بلغت الثلاثين ولم أزل فى زمرة العزاب المساكين، ولم أطأ بساط النعيم، ولم أقعد مع الحريم، ولم أطاوع نفسى، ولم أنظر قط فى غير درسى.

فلما بدأت عطلة الأزهر، وفرغنا من الجهاد الأكبر، عزمت على التفسح، والتحرش، والتمسح، ولبست جبة من الجوخ السلطانى، وقفطاناً من الحرير الحمصانى، وشالاً من الصوف النعمانى، وحذاء يقال لجلده أمريكانى.

وخرجت إلى ميدان الأوبراء، استطلع النساء وأنتقى لى منهن حسناء، فلم أر إلا خواجات وهوانم، لا يرغبن فى مجاور أو عالم:

فقلت لنفسى:

عليك بالأحياء البلدية، مثل الغورية فهناك يحن الجنس إلى الجنس وتكمل المعرفة، ويتم الأنس.

ويتابع المتيم حديثه، فيروى لنا كيف التقى بواحدة منهن، ردته خائباً.. بعد أبيات فيها ما يمنعنا الحياء من ذكرها.

ثم يقول:

فرجعت إلى موقف الترام، حيث نقطة الازدحام:

فمرت خدلجة ثانية، لمئزرها ثانية، ولها ساق سبحان الخلاق، فمشيت خلفها على طول.. وأنا أقول:

أيها الساق الذى قد دملجا

وتحاشا حجله أن يخرجا

يتهادى يمنة أو يسرة

خلقة أو خفة لا حرجا

كلما سارت به ربته

خلتها عمداً تدوس المهجا

كـــــيف يلقـــــاك مـــــحب واله

إن تمددت عليـــــه ابتـــــهـــــجـــــا ؟

فمرت ولم تفهم.

فقلت: إلى جهنم.

ورجعت إلى موقف الترام، ونقطة الزحام.

فمرت غادة ثالثة، بمئزرها عابثة: ولها قد يقد ونهد يهد، فمشيت خلفها على طول.. وأنا أقول:

أيهـــا النهـــد الذى قـــد قـــبـــقـــبـــا

وغـــــدا كـــــالطاس حـــــين انقلبـــــا

يتـــــهـــــادى يمنـة أو يســـــرة

فـــإننا أفـــرنجـــهـــا والســـعـــربا

كلمـــــا ســـــارت بـه ربتـــــه

أظهـــــر الطيـش وأبدى السلعـــــبـــــا

كـــــيف يلقـــــاك مـــــحب واله

قـــــد تلظى قلبـــــه والتـــــهـــــبـــــا

قال: فلم ترد على، ولم تلتفت إلى.

فرجعت إلى موقف الترام، ونقطة الزحام.

فمرت امرأة كالبرج المشيد، وفيها محاسن الآخريات وتزيد، على رأسها شوال، فهجمت عليها فى الحال.

وقلت لها: والله لأحملن عنك هذا الشوال.

قال: فلما استقر الشوال على راسى، كاد يخمد أنفاسى، ولكنى تظاهرت بالرجولة، بصبرى على هذه الحمولة، وسارت تتأود وتتبختر، وأنا خلفها أتلوى وأتعثر، وكلما رأتنى أقترب منها، أسرعت وإذا تباعدت عنها، تمهلت وتملكعت.

فسألتها فى الحال.. عن محتويات هذا الشوال.

فقالت: عشرة صحون، وهون وأقتان من الزيتون، وعشرة أرطال بن أخضر، وستة روس من السكر، ومائة بقسماطة، وعشرة أقات من البطاطة، وجرن رخام للكفتة، ومقطع بفتة، وأربع أزواج من القباقيب ومثلها من المراكيب..

وبقيت تسير وأنا أسير وتقول وأنا فى ذهول إلى أن وجدت نفسى أمام شباك التذاكر.

فقالت لى: إلى هنا يا زميل الهنا.

فقلت: هل أنت مسافره.

قالت: ولك شاكره.

وإلى هنا تنتهى المغامرة، وقد رأيناها فى أول بنائها، تشبه طريقة الجارية التى كانت تغنى لهارون الرشيد على البئر، والتى رواها كِتَاب (إعلام الناس)، وهنا نضع أيدينا على واحد من المؤثرات الفنية، التى أثرت فى أدب بيرم.

وتبدو هذه الطريقة، أكثر مطابقاً فى قصة «المقامة الفلوكية» حيث يحدثنا «الأبلع بن زعربان» كيف أنه طب فى جمال امرأة رآها وهو يتنزه على النيل حيث التفت، فإذا قارب فيه رجال أربعة ومعهم امرأة متقصعة، ولها دمدمه وشهيق.. وهى تقول بصوت مخنون:

يا ندامـــاى ارحـــمـــوا شـــجـنى

نـار قـلـبـى أحـــــــرقـت بـدنـى

إن زوجـى مـــــقـــــرف نـكـد

مـــثـل فـــار البـــربـخ الـنـتن

كـلـمـــا يـرتـاد نـاحـــيـــتى

خـلـت أن المـوت يـقـــــربـنـى

ثم يروى الأبلع لنا كيف سكتوا هنهة ثم عادت الدويهة والفلوكة بهم طافية وقد أسكت المعنى وغيرت القافية فكانت أنفسها تطول وهى تقول:

يـا نـدامـــاى أنـعـــشـــوا روحـى

إن قـلـبـى غـــيـــر مـــفـــتـــوح

إن زوجـى أقـــــرع قـــــذر

لا أراه غـــــيـــــر سـنـكـوح

كـلـمـــا يـرتـاد نـاحـــيـــتى

اســـتـــغـــاث الـنـاس مـن نـوحـى

ويستمر الأبلع فى حكايته، فيروى لنا مقطوعات أخرى، قالتها المرأة على نفس النسق، من تغيير القافية والاحتفاظ بالمعنى، تماماً مثل الذى رأيناه فى قصة الجارية مع هارون الرشيد.

مما يؤكد أثر ثقافة هذه الكتب شبه الشعبية، فى التكوين الثقافى لبيرم.

وبالتالى فى إنتاجه الأدبى، الذى أرضى به كل أذواق قارئيه، وربط بين أدبنا القديم.. والحديث بأجمل رباط.

لزوميات بيرم

نعود بعد ذلك، إلى مصدر آخر، من مصادر ثقافة بيرم الأدبية العربية، ويتمثل هذا المصدر.. فى لزوميات أبى العلاء المعرى.. واللزوميات.. تعنى لزوم ما لا يلزم «بالنسبة لقوافى الشعر».. لأنها تَكَلُّفٌ.. أكثر مما هو مطلوب.. زيادة فى إظهار قدرة الشاعر.

فقد يقال.. إن التزام الشاعر، بأن يقدم لنا فى القافية، أكثر من حرف، وقد يصل إلى خمسة أحرف، مما يعوق الشاعر عن إسترساله، فى عرض أفكاره.

لكن الشاعر القادر على لغته، استطاع أن يجد من هذا القيد، مجالاً أرحب لعرض فكره.

ومن أعظم الذين كتبوا اللزوميات.. إن لم يكن أعظمهم جميعاً «أبو العلاء المعرى» الذى نظم فيها كتاباً ضخماً.. على جميع الحروف.. مرفوعة أو مجرورة أو منصوبة.

ومن لزومياته على المثال! وقد التزم المد والباء والحاء:

أصاح هى الدنيا تشابه ميتة

ونحن حواليها الكلاب النوابح

فمن ظل منها آكلاً فهو خاسر

ومن عاد عنها ساغباً فهو رابح

وقال ملتزماً.. الياء وألف فى المد.. والباء والهاء الممدودة:

دنيـــــاك دار أن يكـن شـــــهـــــادهـا

عـــقـــلاء لـم يبكـوا عـلـى غـــيـــابـهـــا

مـــا الظـافـــرون بـعـــزهـا ويـســـارهـا

ألا قـــريـــو الحـــال من خـــيـــابـهـــا

وقال ملتزماً الباء والكاف:

ضـــحكنا وكـــان الضـــحك منا ســفـــاهة

وحق لسكان البـــســـــيطة أن يبكوا

تحـطـمـنـا الأيـام حـــــتى كـــــأننا

زجـــاج ولـكـن لا يعـــاد لنا ســـبك

وقال ملتزما بالراء الممدودة.. والواو المهموزة.. والهاء الممدودة بالألف:

مُلَّ المـقـــام فكم أعـــاشـــر أمـــة

أمـرت بغـيـــر صـلاحـــهـا أمـراؤها

ظلمـوا الرعـيـة واسـتـجـازوا كـيـدها

فـعـدوا مـصـالحـهـا وهم أجـراؤها

أما بيرم التونسى.. فقد أسمى لزومياته بلزوميات «المغرى» بالغين بدلاً من العين، سخر به من نفسه.. وقد اخترت لكم منها قوله:

١ ـ قافية الراء والقاف:

ليـت الـكـوارث تفـنـى والحـــوادث من

أعـــدائهـــا مـــثـلمـــا أقـــيت من ورق

وليت وصل حـــبـــيـــبى لو يجـــود به

يدوم لى مـــــثـلمـــــا واصلت من أرق

فى مـدمـعى وزفـيـرى بت منتـصـبـاً

كـالشـمع يسـهـر بين النار والعـرق

٢ ـ قافية اللام والألف والفاء:

السـجن فى الظلمـات أحـسن منزلاً

من عـشـرة الأوغـاد والأجـلاف

مـا بين قـوم لم تفـه أفـواههم

إلا لقـذف عـقـيلة وخـلاف

وإذا تحـركت الجـوارح منهم

كـانت لأجل الكسـر والإتلاف

مـاذا تريد من ابن عـمك صـالح

والحـاج طه السـيـد العـلاف؟

٣ ـ قافية الشين واللام والألف:

دخلت إلى الصلاة وكان فى المسجد نشال

سجدت معفراً وجهى فضاع النعل والشال

٤ ـ قافية الباء والخاء:

لا ألعن الدهر إن أخنى عَلَى فَطِنٍ

ولست شاكره إن قدم اللبخا

أرى الحمير حماراً نصف عدته

من فضة وحماراً يحمل السبخا

٥ ـ وقال فى تورية.. بالشيخ بخيت.. ملتزماً الياء والتاء:

أمعنت فى حلو الزمان ومره

وشددت فى حبل الهوى ورخيت

فعلمت أن بنى آدم خامل

لا بخت يلقى و«الحمار بخيت»

٦ ـ وقال ملتزماً.. الراء والباء:

وإذا اللئيم دعاك خارج بيته

فى قهوة أو حانة لا تشرب

إن اللئيم إذا أصابك نبله

فلقد أصبت بخلعة من أجرب

٧ ـ وقال فى قافية.. الباء الممدودة مع السين:

الناس أحقر من بهائم سخرت

فى هذه الدنيا تسوق الباسا

ودليل ذلك أنهم لعدائهم

وضعوا على أبوابهم ترباسا

وأساء كل ظنه بقرينه

فلذاك يلبس تكة ولباسا!!

٨ ـ وقال فى قافية.. القاف والراء:

رأيت الناس فى الأفراح لا يصغون للمقرى
ويصغون بإعجاب لأهل العزف والنقر
سألت الله أن يلقى عليهم بردة الفقر

٩ ـ وقال فى قافية.. الواو والألف والباء:

لا يدخلن على البنات مدرساً
رجل ولو كان امرؤ أو أبا
وإذا نشطتم للحراسة فلتكن
بوابة للباب أو بوابا
ماذا يرد العرض إن بات الذى
قد غاله يستغفر التوابا؟

١٠ ـ وقال من قافية.. الألف والطاء والنون:

كل مغن بمصر خال
من حلية العقل والفطانه
يهذى ويعوى ولست أدرى
لعمركم تلكم الرطانه
فصوته حشوه نهيق
وكل توشيحه بطانه

وبعد..

فهذه كلمات، أردت أن أضعها فى مكانها من هذا البحث.

وأسارع فأقول إنه برغم التشابه الذى يبدو بين المؤثر والمتأثر.

فإن شخصية بيرم، واضحة فى كل سطر كتبه، إنه تشابه بين عباقرة.. وليس بين قوى وضعيف.

■■■

obeikandl.com